مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 8 / العـدد 01 (2021)، ص : 52-89

المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري.

Cultural resistance in the thought of Amir Abd Al-Kader –Al Jazaery

الدكتورة: شيخي خديجة.

جامعة الجزائر 02. الجزائر.

تاريخ الاستلام: 2021/01/23 تاريخ القبول: 30 /2021/01 تاريخ النشر: 2021/12/31

الملخص:

إن الأمير عبد القادر الجزائري هو رائد من رواد النهضة الإسلامية التي شرع فيها في القرن التاسع عشر و التي لا تزال متواصلة إلى يوم الناس هذا، فالرجل صاحب سيف و يظهر ذلك من خلال مقاومته المسلحة للمستعمر الفرنسي طيلة سبعة عشر عاماً، كما أنه صاحب قلم أيضاً و له كتب عديدة نذكر منها: "وشاح الكتائب و زينة العسكر المحمدي الغالب"، "جواب سؤال عن الراكنين إلى الكفار و مسائل الجهاد"، "تعليقات على حاشية جده السيد عبد القادر ابن خدة في علم الكلام"، "الصافنات الجياد"، "مذكرات الأمير عبد القادر"، "أجوبة الأمير على أسئلة الجنرال دوماس حول المرأة العربية"، "ديوان شعر الأمير عبد القادر الجزائري" وكتابه الشهير في التصوف المواقف.

وفي هذا المقال سوف نتطرق إلى كتابين من كتبه هما: "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد " وكتاب" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" وسؤالنا الذي انطلقنا منه هو كيف تتجلى المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر الجزائري من خلال الكتابين الأخيرين؟

الكلمات المفتاحية: فكر الأمير عبد القادر الجزائري، المقاومة الثقافية

Summary:

Amir or Prince Abdelkader Al-Jazaery is one of the pioneers of the Islamic renaissance in which he initiated in the nineteenth century and which is still continuing to this day. The man with the sword shows this through his armed resistance to the French colonialist for seventeen years, and he were also spiritual leader, he wrote several books, we mention among them, “Wishah Al-Kataeb W Zina Al

Askar Al Muhammadi Al-Ghalib", "The answer to a question about those who are reckless to the infidels and issues of jihad" ,"Comments on the neighborhood of his grandfather, Mr. Abd Al-Kader Ibn Khudda in the science of speech", "Al Safinat Al Jiyad", "the memoirs of Amir Abd Al-Kader", "The Amir's Answers to General Dumas's Questions About Arab Women", "The Poetry of Amir Abd Al-Kader Al-Jazaery" and we conclude with his famous book on Sufism, namely "Al-Mawqif."

In this article, we will deal with two of his books, namely "The Sharp Puncher to Cut the Tongue of the Contestant in the Religion of Islam with Falsehood and Atheism" and "Remembrance of the Sane and Warning of the Unbeliever", and Our question, from which we started, is how the cultural resistance of Amir Abd Al-Kader –Al Jazaery is manifested through the last two books?
Key words: Amir Abd Al-Kader –Al Jazaery , Cultural resistance.

المؤلف المرسل: شيخي خديجة

المقاومة الثقافية في كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد

1- أسباب كثابةُ المقراض الحاد:

يمكننا معرفة أسباب كتابة المقراض الحاد من خلال المقدمة التي كتبها له الأمير عبد القادر وهو في حصن أمبواز سنة 1852م وهدا نصها[1]:

"عندما طلب مني شرح عن معتقداتي الإسلامية، أجبتهم بأنني لا أصلح تلميذا لعلماء المسلمين، فصلا أن أكون من جملتهم. و لكن سأبذل الجهد، وأذكر كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلام التابعين، والخلفاء الراشدين لأنها أمور مرتب بعضها على بعض."

إذن طلب منه الفرنسيون شرحا لمعتقداته الإسلامية؛ ومن خلال إجابته لهم نجد أنه يؤكد للفرنسيين أن المسلمين علماء أفذاذ على عكس ما يتصورونه

[1]- الأمير عبد القادر الجزائري: المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد تحقيق الأميرة بديعة الحسني الجزائري؛ دار الوعي النشر، الجزر، 2012 ص77.

من أن المسلمين ليس لديهم علماء ولا يهتمون بالعلم، وهذه النظرة الاستعمارية جعلت المستعمرين يسعون إلى فرض تفافتهم وحضارتهم بالقوة على الشعوب المسلمة التي استعمروها ومن بينها الشعب للجزائري.

2-مواضيع كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد:

لقد اعتمدنا على النسخة التي حققتها الأميرة بديعة الحسني الجزائري حفيدة الأمير عبد القادر[2]، وقد تحدثت فيها تعليقها على الكتاب عما شمل عليه فتقول: وقد شملت رسالة الأمير عبد القادر (المقراض الحاد) على المواضيع الرئيسية في الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية والتربية من وفاء وإخاء ورحمة وعدل، وبيّن مكانة الفرد في هذا الدستور الإلهي الذي جعله الله يشكل اللبنة الأساسية في كيان الأمة والمجتمع؛ هذا الفرد الذي جعله الله في المنهج الإسلامي مكلفا ومميزا وقال تعالى: **{هو الذي جعلكم خلائف الارض ورَفع بعضم فوق بَعض دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكم}** الأنعام الآية 165 ... فهذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام 1852م للقساوسة في فرنسا والمفكرين أراد تضمينها كل هذه الأسس في الدستور الإلهي القرآن واعتقد أنه نجح على جعلهم يقرؤونها ويترجمونها وثم يحتجوا على عنوانها الجريء (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) وقبولهم لها وترجمتها ووضع اسمه بين علماء العلم دليل على نجاحه فيما قدم. وعلى الرغم من ذلك لم يقدموها كمخطوط وإنما مطبوعات مترجمة محتفظين بالمخطط الذي يعتبر تراثا حضاريا راقيا بخطة الجزائري ومضمونه الحضاري.

ولم يجرؤ أحد والحمد لله على تشويه هذه الرسالة ولكنهم لم يبرزوها كما يجب، ولا عجب في ذلك فهي تحمل في طيات صفحاتها أسس حضارة مناقضة لحضارتهم التي بنيت على تقديس كل ما هو مادي، وعلى التعالي والتكالب على جمع المال بأي وسيلة ويخطف لقمة العيش من أفواه الأضعف منهم من الشعوب

[2]- الأميرة بديعة الحسني الجزائري وأبو القاسم سعد الله، **الفكر الأمير عبد القادر الجزائري**، الجزء الثالث، الدار الوعي للنشر والتوزيع الجزائر 2012 ص149.

الأخرى... والدليل على أنهم عندما شاهدوا جمال الطبيعة في الجزائر و غناها ، وسهولها الواسعة الخضراء وينابيعها العذبة، وجبالها المكسوة بأُشجار الصنوبر والأرز والسنديان، وصحاريها الغنية بالمعادن والذهب، فأرادوها قطعة من فرنسا، وتحويل شعبها إلى عمال في مصانعهم وأجراء في مزارع كان أصحابها يملكونها أعزاء أباة وخططوا إلى ضم هذه البلاد الرائعة إلى بلادهم، وإرساء حضارتهم المادية المستهترة بكل القيم الإلهية وهدم حضارة شعبها الجزائري ومفاهيمه وقيمه العادلة وبتر جذوره ومحو تاريخه، وأرادوا زرع مشاعر الدونية مقابل الانبهار بعظمة فرنسا وزرعها في نقوس هذا الشعب. لتسهيل عملية الضم والادماج ولكن ذلك كان دونه خرق القتاد لقد واجهوا شعبا أبيا متمسكا بدينه وقيمه ولغته وفخورا بتاريخ أجداده وجذوره ورموز أمته ، وعندما عمرهم اليأس من احتلال كافة التراب الجزائري

والقضاء على جيش الأمير عبد القادر ودولته، عمدوا وبالقوة على إجبار دولة شقيقة لهذه البلاد بفتح معارك جانبية ضد دولة الأمير عبد القادر وجيشه وعاصمته المتنقلة (الزمالة)، وبعد معارك دفاعية مريرة، وجد الأمير وقادة جيشه أنه ليس من مصلحة أحد الاستمرار بهده المهازل، والمستفيد الوحيد من هدر هذه الدماء هو العدو، إن كانت دماء المدافعين عن حرمة بلادهم، أو من المغلوبين على أمرهم الذين أجبروا بالقوة على فتح جبهة ضد إخوانهم لصائح المحتلين وتحقيق[3] مآربهم الاستعمارية من جهة أخرى، ولم يكتف العدو بقتال الإخوة عمد إلى إجبارهم على حصاره بعد تلك المعركة التي خرج منها

الأمير منتصرا، وعندما فوجئ بذلك الحصار في تلك الليلة الظلماء أبى الاستمرار في تلك المهزلة. ورأى أن من الحكمة وقف الحرب والهجرة من البلاد بعد أن وجد نفسه لا يقاتل جنرالات فرنسا وجيوشها الجرارة، وإنما كوات نظامية لدولة شقيقة وقوات مسلحة من أبناء الوطن الذين خدعتهم فرنسا ببريق عظمتها الخيالي ، ولكون هذا القائد والأمير الذي انتخبه شعبه سلطانا عليه كان عالما

[3]- الأميرة بديعة الحسني الجزائري؛ فكر الأُمير عبد القادر الجزائري؛ ج3: مرجع سبق ذكره ص151-150.

وفقيها، والعقل كان عنده الميزان، و العلم والإيمان كانا عنده عامل الإدراك للمستجدات ولمبدا الشورى الذي جعل له المكانة المميزة في دولته لمدة سبعة عشر عاما، والدليل على ما ذكرت تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري أن قراراته بوقف الحرب والهجرة كانت بالإجماع. وكانت قرارات سياسية شرعية حكيمة وليست عسكرية لأنه لم يتخذها نتيجة لمعركة هزم فيها، وهذا لم يحدث، ولو لم يتغير وجه الحرب لما اتخذ ذلك القرار بوقف الحرب، وربما كان أوصل فرنسا إلى حالة اليأس من احتلال الجزائر وعادت بقواتها إلى بلادها، وهذا كان هدفه وغايته من متابعة الحرب.

وبعد تلك القرارات السياسية والشرعية بوقف الحرب والهجرة وبعد الغدر الذي تعرض له والأسر والسجن؟ عمد الفرنسيون إلى فرض أنظمتهم على الإدارات والمؤسسات التي كانت سائدة في دولته التي أسسها على هدى القرآن (الدولة الإسلامية). ولكن الشعب الجزائري رفض هذه التغييرات عام 1849م، وتمسك بنظم وقوانين دولته ومؤسساته التي أرساها الأمير عبد القادر الرجل الذي انتخبوه سلطانا عليهم. وقارم الشعب هذه المحاولات وحدثت ثورات دامية في القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر من أجل الاحتفاظ بهذه المؤسسات والنظم الإسلامية على الأقل. ويذكر المؤرخون أن الفرنسيين أطلقوا على أبناء الشعب الذين تمسكوا بقوانين دولتهم التي أسسها الأمير عبد القادر لقب (الأهالي) ، وأصدروا مجموعة من القوانين أسموها (قانون الأهالي ، l'indigénat ، لقهرهم وردعهم).

ولا بد لكل من قرأ هذه الرسالة (المقراض الحاد) من ملاحظة أن هدف الأمير لم يكن استعراضا لمعلوماته وإنما تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري الهدف كان الدعوة الإسلامية التي هي واجب على كل مسلم[4]. وأيضا تعريف هؤلاء المستعمرين لبلاده ، بدولته التي أرساها على هدى القرآن في الجزائر أراد أن يقول لهم في هذه الرسالة أن الشعب الجزائري يملك حضارة إلهية عريقة لا تقارن بحضارتهم الوضعية الهجينة التي يريدون فرضها بالقوة على شعبه بحجة إنقاذهم

[4]- الأميرة بديعة الحسني الجزائري؛ فكر الأمير عبد القادر الجزائري؛ ج3: مرجع سبق ذكرة ص152.

من التخلف والتوحش. وقال لهم في مقدمة رسالته، إنني لا أصلح أن أكون تلميذا للعلماء في بلادي الجزائر، ومؤلفاته العلمية؛ كان لها مناسبات اضطر إلى كتابتها في سجته بقصر أمبواز بفرنسا، وأقصد تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري (المقراض الحاد لقطع لسان منتفض دين الإسلام بالباطل والإلحاد) وكانت موجهة إلى جماعات لا تؤمن بالإسلام ولا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسولا، فكان لابد من مخاطبتهم بالأسلوب الذي يفهمون إلى أن يصل إلى غايته. وهي نشر الدعوة الإسلامية التي نزلت إلى الناس أجمعين. ولقد جسد هذه الدعوة بأعماله الملحمية قبلا وفي سجنه أيضا. وكانت عنده سلوكا، ولكنها الآن بعدما سمع ذلك الكلام من الضابط الفرنسي الذي أبلغه أقوال القسيسين، أصبحت عنده ليست فقط سلوكا و انما سلوكا لفظيا، وكلمات تكتب، تعبر عن مستودعات الفكر والمعرفة. و عن كينونته ثم عن هدفه ، وكما قال سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم « **أَلَمْ تَرَ كَيفَ ضرب الله مثلا كلمة طيْبة كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء (24) تؤتي اكلها كل حين باذن ربها و يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (25) و مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**».

و الكلمة الطيبة هي التوحيد، الإيمان باله واحد لا شريك له. ولكي يصل الى عقولهم ،فتناول الأمير في المقدمات علوم مختلفة، تكلم في الفصل الأول من رسالته (المقراض الحاد لقطع لسان منتفص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) عن العلم والجهل ،ثم عن فضل العلم و العلماء ، ثم تكلم عن العقل ليخاطب عقولهم، وقيمة هذا العقل و الحدود التي وضعها الله سبحاته وتعالى لهذا العقل. تكلم عن الحواس والإدراك. ثم في الفصل الثاني تكلم عن العلوم الشرعية وحاجة الإنسان الى الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده لإرشاد هؤلاء العباد إلى الطريق السوي وسبيل الخير.

و تكلم عن إثبات الألوهية والنبوة بأسلوب علمي مبسط وبالأدلة الصادقة الطريق السليم لمعرفة الله ومعرفة الرسول إن كان صادقا أم مدعيا ، وفي نهاية الرسالة كتب في تاريخ الأمم، والوفاء عند العرب، وبعلم الاجتماع، وفضل التصنيف وتدوين المعارف ، وعن آيات الله في الأرض والسماء، وعن تأثير نور القمر

في الإنسان و الحيوان و النبات والمعادن و البنابيع ، وعن كراهية التنجيم في الشريعة الإسلامية أو الاعتماد عليه و الذي كان قدماء الرومان واليونان يعتقدون به ، ولا يقصد علم الفلك الذي برع فيه قدماء العرب وخاص كلدان وفينيقيين في أُيام البابليين في بلاد الرافدين .

قال تعالى في سورة النحل:(**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون (15) و وعلامات و بالنجم هم تهتدون)** الآيتان 15 و 160.هذه النجوم التي أودعها الله تعالى السماء إذا عميت عليهم السبل في البحر ساعدتهم في النجاة و أشار أيضا الى تحريم السحر في الإسلام . و ما من مؤمن مثقف إلا و يعرف بأن الله سبحانه و تعالى ، عندما خلق البشر ، لم يفرق في هذا الأمر بين الذكر و الأنثى ، فالأمير عبد القادر كان من هؤلاء الذين جاهدوا بأرواحهم و أمواله في سبيل الله بشهادة كل من عرفه ، حفظ القرآن و درس صحيح البخاري و مسلم ، و كان مؤمناً حقا ، صادقا ، واسع المعرفة بالتاريخ الإسلامي ، فكيف لا يعرف أن سيدتنا عائشة زوج الرسول صلى الله عليه و سلم كانت فقيهة و عالمة ، و صححت الكثير من الأحاديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم و التي نسبت إليه ، و نُقلت عنها الأحاديث الصحيحة ، و كذلك زينب بنت جحش رضي الله عنها . و كل نساء النبي عملوا بها أمرهم الله سبحانه و تعالى في سورة الأحزاب (**وَاذْكُرْنَ مَا يُتلَى فِي بُيُوتِكُنَ مِنْ ، آيات الله)** و في آيات كثيرة في القرآن أمر الله بالعلم و أشار الى قيمة العلم و العلماء ، فقال في الزمر (**قُلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذينَ لاَ يَعْلَمُونَ)** و الكتابة و القراءة ، هما جزء من كل.

و بإجماع جمهور الفقهاء ، و ما نقل عن الرسول صلى الله عليه و سلم من احاديث صحيحة مسندة ، و عن خلفائه الراشدين ، و ما جاء في أمهات كتب الشريعة ، و المذاهب الأربعة ، لا يوجد نص يحرم العلم على المرأة و يحجبه عنها عندما خاطب الله سبحانه و تعالى عباده بقوله (**يَا أَيُّهَا النَاسُ**) [5] شمل الذكر والأنثى ، و عندما قال تعالى في سورة المجادلة : (**يَرْفَعُ الله الَّذِينَ آمَنُوا منكم والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**) لم يفرق بين الذكر و الأنثى ، و ما جعل المذكر في

[5] الأميرة بديعة الحسني الجزائري ، فكر الأمير عبد القادر الجزائري ، ج3 مرجع سبق ذكره ، ص ص . 156-158.

هذه الآيات إلا للتغليب في قواعد اللغة العربية هو أمر معروف في في فقه اللغة . و عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال: "من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريق الى الجنة " رواه مسلم بسنده . فكيف يعقل ان يجهل عالم ديني كالأمير عبد القادر موادا شرعية كان يدرسها ، ويعقد الندوات للحديث عنها ، و بموجبها لقب بعالم؟ و الأمير عبد القادر كما أسلفت كان يدرس صحيح البخاري في سجنه لأصحابه، و منها حديث نقله البخاري (تبليغ العام و فضل حامله)

و كان هدف المسلمين نشر الدعوة و إيصالها الى الناس أجمعين بشتى الوسائل ، فكيف يحجب التعليم عن المرأة و هي كما قال الرسول صلى الله عليه و سلم : " النساء شقائق الرجال" في حديث مسند رواه البخاري و مسلم . و هل يجهل الأمير الله سبحانه و تعالى لم يفرق بين الذكر و الأنثى عندما يقول(يا أيها الناس) . عندما قال الله تعالى في سورة العلق **(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمْ (3) الَّذي عَلَمَ بِالقَلَمْ (4) عَلَمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)** إن الله سبحانه و تعالى خاطب الإنسان الذكر و الأنثى . و هذه الآيات كانت أول رحمة و نور و هدى نزلت على النبي الكريم ، و أول نعمة من نعمه ، و هي العلم الذي خص به الإنسان من ذكر و أنثى ، فقال تعالى "علّم الإنسان" و لم يقل علّم الرجل . و العلم لا يكون إلا بالاطلاع و التبيان . فهل يجهل الأمير العالم تفسير هذه الآيات التي يقرأها كل يوم في صلاته ، و الذي أطلق عليه لقب عالم العلماء دمش من ميداني ، و حمزاوي ، و الشيخ طاهر الجزائري ، و المشايخ الذين أخذوا عنه إجازاتهم في الفقه الإسلامي . و أول مرة لقب بالعالم بعد ترجمته كتاب (المقراض الحاد) في باريس ، و سجل إسمه في سجل علماء العالم و لقب بالعالم بعد الاستماع إلى ندواته الفقهية في دار الحديث النووي . فهل يمكن لعالم مثله جهل أن في المجتمعات الإسلامية نساء عالمات كان منهن من أعطين إجازات علمية إلى الرجال ؟ و الدليل على إيمانه بضرورة تعليم المرأة اهتمامه الكبير بتعليم بناته و منهم كما تقول الاميرة بديعة حسني الجزائري [6]: " جدتي أكبر كريماته ، وخطها مازال عندي إلى الآن . وقد

[6] الأميرة بديعة حسني الجزائري ، فكر الأمير عبد القادر الجزائري ، ج3 ، مرجع سبق ذكره ن ص 159.

أشرف على تعليم حفيدته حفصة التي توفي والدها في حياته ، فقد كانت تتقن اللغتين التركية و العربية ، و ألمت باللغة الروسية أيضا لأن مدرستها كانت روسية.

3-المقاومة الثقافية في كتاب مقراض الحاد:

إن هذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام 1852 م للقساوسة في فرنسا و المفكرين أراد منها الدعوة إلى الإسلام و لكن في نفس الوقت تضمنت مقاومة لهؤلاء المستعمرين تتجلى خصوصا في الباب الثالث الذي تحدث فيه عن الأخلاق الإسلامية إلا أنه معنون ب " الوفاء عند المسلمين " و إن هذا العنوان في حد ذاته رسالة نضالية قوية للمستعمر، الذي لم يف بعهده الذي قطعه للأمير عبد القادر عندما عندما إنتهت الحرب التي دارت بين دولته التي أسسها في الجزائر و بين العدو الفرنسي . ثم بدأ هذا الفصل بآية حيث يقول : " قال الله تعالى في سورة النحل من القرآن : (وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهدْتُمْ) الآية 91 من سورة النحل . وفي سورة آل عمران قال: (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين). و قال في سورة المائدة : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا أَوفُوا بالعُقُودِ) ثم يورد حديثا للنبي صلى الله عليه و سلم : "من إذا تحدث كذب و إذا وعد أخلف ، و إذا أؤتمن خان ، ليس بمسلم [7].

فالأمير عبد القادر يخاطب القساوسة و المفكرين فيقول لهم : "فالشريعة المحمدية جمعت كل ما جاء في الشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام : ما جئت لأبطل التوراة و لكن جئت لأكملها. فكذلك محمد عليه السلام : ما جاء ليبطل التوراة و الإنجيل ، و لكن جاء ليكملهما "[8]. فالأمير عبد القادر يبين لهم أن الشريعة المحمدية ، هي تكملة للتوراة و الإنجيل ، و ذلك ليطمئن القساوسة فهو يدعوهم إلى أن يعترفوا بالإسلام كدين سماوي و ليس إلى التخلي عن الإنجيل والخروج على المسيحية ، و هذا على عكس ما كانت تقوم به الحملات التبشيرية في الجزائر المستعمرة ، فقد كانت تسعى إلى إخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي وبالتالي ثقافتهم الإسلامية .

---

[7] الأمير عبد القادر الجزائري ، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل و الإلحاد ، مرجع سبق ذكره ، ص 129 .

[8] نفسه ، ص 129.

ثم تحدث الأمير عن مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام حيث يقول :

" قال الحكيم الترمذي : فما من خلق حسن ولا صفة كريمة يدرك العقل حسنها أولا مما يحصل به طيب الحياة الدنيا إلا و جاء الشرع يمدحها والأمر بها و الوعد عليها بالجنة . وما من صفة ذميمة أو لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد إلا وجاء الشرع بذمها و النهي عنها و التوعد عليها بالنار، و ذلك مثل الصدق و الوفاء و الإحسان و الإيثار و الاقتصاد في الأمور و الاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس ، و الإنصامن نفسك ، و إنفاق المال فيما أمر به الشرع ، و الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر ، و إصلاح ذات البين ، و إماطة الأذى عن الناس حتى من الطرقات ، و الاستشارة و الأدب و الاحترام و الاجلال لأفاضل الناس و إدخال السرور على عباد الله و الإرشاد لهم بالتعليم و التربية ، و إفشاء السلام ، وإكرام الجار ، و إجابة السائل والعطاء قبل السؤال ، و استكثار قليل الخير من الغير ، واحتقار تعظيم النفس ، و طلب الجاه ، و بذل البشر و البشاشة في وجوه الناس ، و التواضع و التعاون على الخير ، والتؤدة ، و تنزيل الناس منازلهم ، و الصبر والتغافل عن الإساءة و التسامح ، و تحمل الأذى و ترك الأذى ، و ترك الكبر ، وتجنب الإعجاب بالنفس ، و ترك معاداة الناس و التكلف ، و تجنب مواضع التهم، و الثبات في الأمور ، و جلب المصالح للعباد ، و دفع المفاسد عنهم ، الحلم والحياة و حفظ الأمانة و العهد و العرض ، و الصمت عما لا يعني ، و التعقل في المقال ، و حسن الظن ، و طيب المعاشرة ، و خدمة الضيف و الأصحاب و الفقراء ، و الرفق و رحمة الضعفاء و الصغار ، و الرضا بالدون من المجالس ، و الرأفة والزهد في الدنيا ، و السخاء و السماحة و الصفح عن المذنب ، و الصدقة ، وصلة الرحم ، وبالأخوة لا بالصراع و التفرقة ، و طهارة الباطن ، و العفة والعدل ، علو الهمة ، و قبول الحق ، و إن كان مراً ، و قضاء حوائج الناس ، و كظم الغيظ والمداراة ، و المخاطبة يلين الكلام ، و عن نبينا قوله المتفق عليه : "استنصت الناس أي إصغاء الجليس لحديث جليسه هو من الدين ، و المعاشرة بالمعروف ، ومعرفة الحق لأهله و لمن عرفه ذلك ، و المكافأة و الشكر ، و ترك الحقد و الحسد و حب المال ، و تجنب العداوة و البغضاء ترك التذلل للأغنياء ، و ترك الشح والبخل ، وتجنب الغل والكذب وللغدر والغش والإخاء، وتجنب الظلم والجفاء

والجور والطيش وترك العجلة والبغي، وتجنب الحدة وجحود الحق، وعدم إثارة الفتن بين المسلمين، وتجتب ضيق الصدر، وترك موء الظن، وتجنب قلة الرحمة وقلة الحياء ، وتجنب الحرص والحمق وترك حب الرياسة وتجنب كفران النعمة، وترك طلب العلو على الناس، وترك الطمع، وتجتب الجهل، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وترك المنكر، وتجنب الخيانة والمخادعة ، وغير ذلك ثم يواصل الأمير عبد القادر فيقول: " هذه الأخلاقيات من تفقه في شريعتنا وجدها في القرآن و في أحاديث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. ووجد فيها حتى كيف يجب أن يأكل الإنسان، وكيف يمضغ الطعام، وكيف يمشي على الأرض..." إذن يتبين مما سبق أن الأمير يدعو إلى الإسلام وأيضا للمستعمرين أن الجزائر تنتمي إلى حضارة إسلامية تعتني بالأخلاق السامية من وفاء وعدل وإصلاح في الأرض وهذا ما لا يملكه المستعمرون اللذين بشروا بأنهمٍ جلبوا الحضارة إلى الجزائر، قهر يعري المشروع الاستعماري الفرنسي للجزائر، فسان حاله يقول لمستعمر ممثلا في مفكريه وقساوته نحن أصحاب حضارة فادعاؤكم بأنكم تحملون لنا الحضارة واه وليس له أصل من الصحة.

ثم يتحدث الأمير عن قوى أربعة إذا اعتدلت في الإنسان تقول عنه أنه حسن للخلق وهي: قوة العلم و قوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل. وهو يقول فيها: " أما قوة العلم فحظها وصلاحها في إدراك الفرق بين الصدق والكذب في القول، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين القبيح والجميل في الأفعال، وإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة. والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله تعالى فيها: **{ مَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا }** وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تفتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت السيطرة والحكمة ، و أعني إشارة العقل والدين، أي الإيمان

وأما قوة العدل فهي في كبح قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع؛ فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير، وقوة العدل هي القدرة ومنزلته منزلة

المنقذ الإشارة العقل، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة[9]. ثم يعطي مثالا لتتضح الرؤية فيقول: " ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقيفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس، والشهوة مثالها مثّل القرس الذي يركب في طلب العبيد، فإنه تارة يكون مروضًا ومؤدبا وتارة يكون جموحا، فمثل العقل كمثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، ومتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح. و متى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا، فلا فرسه ينبعث من تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا، فهو خليق بأن يعطب فضلا أن يدرك ما طلب ، وحمق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته ، وجماح الفرس مثال لغلبة الشهوة ، وعقر الكلب مثّال لغلبة الغضب، فمن استوت فيه هذه الصفات و اعتدلت فهو حسن الخلق وكبح جماح الغضب يعبر عنها بالشجاعة ، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنها بالعفة ، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سمي تبورا ، وإن مالت إلى التقصان سمي جبانا ، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سمي شرها وإن مالت إلى النقصان سمي جمودا ، والمحمود هو الوسط ، قال تعالى: **{ وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَةً وَسَطًا لِتَكُنُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَاسْ } الآية 143 سورة البقرة .**

ثم يقول الأمير عبد القادر عن أمهات الأخلاق و أصولها أنها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل [10] و بهذا فالأمير يخاطب المستعمرين من خلال قساوسته ومفكريه فيقول لهم أن الجزائر تنتمي إلى حضارة عريقة تعنى بالأخلاق على عكس ما يروجه المستعمرون بأن الشعب الجزائري شعب متوحش يحتاج إلى الفرنسيين لكي يجلبوا له الحضارة. ثم يواصل في شرحه لهذه الأخلاق فيقول: " ونعني بالحكمة حالة النفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ، ونعني بالعدل حالة النفس و قوتها في كبح جماح الغضب والشهوة ،

---

[9]- الأمير عبد القادر الجزائري ، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد** ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 132-133.

[10]- الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص133-133.

وحملهما على مقتضى الحكمة وضبطهما على حسب الشريعة الإسلامية بالشجاعة والعفة والإيمان ،و كون قوةٌ الغضب وسيلة منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها ، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل وإتباع الشرع. فمن اتبع هذه الأصول الأربعة ستصدر عنه الأخلاق الجميلة كلها ، إذ من الاعتدال تصدر قوة العقل وحسن التدبير وجودة الذهن وثبات الرأي واصابة الظن والتفطن لدقائق الأمور، ومن إفراطها تصدر الجربذة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغباوة والحمق والجنون[11].

ثم يقول الأمير عن المتخلق بأمهات محاسن الأخلاق الأربعة التي ذكرها سالفا، أنه يستحق أن يكون قدوة حسنة يرجع الخلق كلهم إليه. أما من انفك عن جملة هذه الأخلاق كلها واتصف بأُضدادها استحق غضب الله لأنه قد قرب من الشيطان اللعين، ولم يبلغ هذه الدرجة من الكمال في هذه الأخلاق إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وآخرهم خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: «إنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق"[12]. فالأمير عبد القادر يواصل شرحه في الإسلام، دين هذه الأمة الجزائرية والذي هي متمسكة به فيستشهد بالآيات القرآنية قائلا: قال الله تعالى له مخاطبا:

{وإنك لعلى خلق عظيم}. والناس متفاوتون في القرب والبعد منه ، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المسلم في الحقيقة. وكل من فقدت منه هذه الأوصاف فهو بعيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمسلم ولا بمؤمن. فكيف يظن ظان أو يتوهم متوهم فيمن عجن الله طينته بالمحاسن العظيمة وخلقه مطبوعا على كل خلق تستحسنه العقول السليمة، أن يكون فيما شرعه نقص تنكره العقول الكاملة ، فهو عليه الصلاة والسلام رحمة أرسلها الله للعباد ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: " إنما أنا رحمة مهداة إلى الخلق، " وقال تعالى يخاطبه: **{ و ما أرسلناك الا رحمةً للعالمين }** الآية 107 من سورة الأنبياء. فهو رحمة و لمن دخل

---

[11]- الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص134.

[12]- نفس المرجع ، ص135 .

في دينه ولمن لم يدخل فيه بعد[13]. فيتبين أن الأمير عبد القادر يتحدث عن قدوة المسلمين وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أنه رحمة للعالمين وهو بهذا يقول أن الحضارة الإسلامية حضارة عالمية تتسم بالرحمة والمحاسن العظيمة على حد تعبيره. ثم نجد أن الأمير وضع عنوانا هو " الجهاد في الإسلام ليس هدفه السيطرة والقتل " ومن هذا العنوان نجد أن الأمير يخاطب الفرنسيين المستعمرين مبينا لهم ما هو الجهاد في الإسلام؟ وكأن لسان حاله يقول بأنكم أيها المستعمرون المحتلون لبلادنا بالقوة والسيطرة والقتل، نحن (أي الشعب الجزائري) لسنا مثلكم فقتالنا هو دفاع عن النفس في وجه من قاتلنا. إذ يقول: "والفتوحات الإسلامية كان هدفها نشرا هذه الشريعة المباركة بالموعظة الحسنة والعدل والمساواة من دون إكراه في الدين" قال تعالى: **{و قاتلوا في سبيل الله اللذين يقاتلونكم و لا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين}** الآية 190 سورة البقرة. قال الحكماء الأقدمون والعلماء المسلمون كما نقله الإمام السهروردي: إذا كان الخير الكبير يلزمه شر قليل لا يجوز على المبدع إهماله. لأن في ترك خير كثير في سبيل القليل من الشر شرا كثيرا ، كالنار فيها منافع كثيرة وإن كان يلزمها أحيانا حريق ثوب قديم. فإهمال المصالح الكلية والخيرات الكلية لا تجوز إن كان هناك منفعة جزئية، فضرر الجزء يحسن إذا كان فيه دفع مفسدة عن الكل". ثم يواصل الأمير إعطاء أمثلة جواز الجهاد في الإسلام لرد أذى المستكبرين الظالمين وهو يعني العدو الفرنسي فيقول: ألا ترى أن العقل

يجيز قطع الأنملة إذا كان فيها فساد الذراع، ويحسن قطع الذراع من أصله إذا كان ذلك يجلب مصلحة للبدن كله الذي هو الأكثر، وإذا كان هذا عدل ولا جو فيه وحسن ولا كبح فيه فكذلك ذاك. وللقول بأن الحكمة في الجهاد ليس إلا دفع الضرر ونشر العدل. عدل الإسلام في العالم وتشر حضارته الإنسانية أولا بالحسنى

[13]- الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص135.

والموعظة الحسنة ؛ ثانيا بالدفاع عن هذه الشريعة الإلهية بالسيف. الدفاع على أسس عادلة ليس فيها ظلم لأحد من إنسان ونبات وحتى حيوان[14].

إذن الأمير عبد القادر عرف الجهاد في الإسلام فهو دفاع عن الدين الإسلامي ممن يعملون على محاربته اي المستعمر الفرنسي. فالأمير يوضح سبب جهاده وان جهاد شقين عسكري (بالسيف) والثقافي يقوم على نشر الحضارة الإسلامية بالحسنى والموعظة ثم يذكر الأمير عبد القادر بعض الأدلة على جواز الجهاد فيقول: " في قوله عليه الصلاة والسلام دعوا الحبشة، رواه أبو داود عن ابن عمر، قال في شرح هذا الحديث: وذلك أن الحبشة ضعيفة لا يخشى منها ضرر على الإسلام، فأمر عليه الصلاة والسلام بالكف عن قتالهم وقال الخطابي. والجمع بين هذا وبين قوله تعالى: **{قاتلوا المشركين كافة}** اذن الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيد ويجعل الحديث مخصصا لعموم الآية، وحكى ابن شعبان عن مالك أنه قال لا يغزوا الحبشة وقاله ابن القاسم".

يضيف الأمير عبد القادر في ذكر أدلة جواز الجهاد الشرعية فيقول: "ومنها أنه لو كان القتال لغير دفع الضرر وكان لأجل المخالفة في الدين كانت الجزية لا تقبل من الحربي مع بقائه على دينه. وإذا قبل شروطها يحرم قتاله ولا تجوز أذيته ومنها أنه لو كان القتال لأجل الدخول في الدين لكانت المرأة تقتل مع أنها لا تفتل وتترك على دينها وقانون الحرب في الإسلام يحرم قتل المرأة والطفل والرجل العجوز ويحرم حرق الأشجار المثمرة و تعذيب الأسير والتمثيل بجثة القتيل. لأن الأصل عدم إتلاف النفوس، وإنما أبيح من القتال ما يمنع المفسدة. ومن لا يقاتل عادة لا يُقتل لعدم ضرره ، والمرأة سواء بقيت بدار الحرب أو خرجت مع العسكر لا يجوز قتلها، كما قاله القرطبي في شرح مسلم ولو قاتلت بالحجارة ونحوها لا يجوز قتلها. وكذلك القسيسون والرهبان كل هؤلاء المذكورون لا يقتلون، ويعطى لهم ما يكفيهم في عيشهم ولباسهم من أموال المحاربين. فإن لم تكن فيجب على المسلمين أن يعطوهم ما يكفيهم. هذه من قوانين الحرب في الإسلام التي تقيد بها الفاتحون.

---

[14]- الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص136.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا بعث جيشا أو سرية يقول لهم: اغزوا باسم الله لا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صبيا، أوصى أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام أن لا يقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا يقطع شجرة مثمرا ولا يخربن عامرا.

ثم يواصل الأمير تفصيل معنى الجهاد في الإسلام دينه ودين الدولة التي شيدها في الجزائر فيقول: " ومنها أنه لا يجوز القتال لأجل أخذ أموال العدو ولا يجوز القتال غضبا و غيظا على العدو. كما قاله العارف بن أبي جمرة. لأن هذه نقائص وخسائس يتنزه عنها دين الإسلام. وذكر العارف بن عطاء الله أن عليا بن أَبِي طالب رضي الله عنه كان إذا ضرب عدوه في الجهاد لا يعاود له ثانية حتى ينظر ربما أنه مات من الأولى؛ وان دفع ضرره الذي هو مقصود الشرع في الأمر بالقتال. فتكون الضربة الثانية قبيحة لا دخل لها في الحسن [15].

وعليه فإن الأمير عبد القادر أورد كل هذه الأدلة ليبين لنا المقصود من للجهاد والقتال وهو دفع الضرر والظلم عن الأمم والدفاع عن الإسلام وهذا ما كان يقوم به طوال سبعة عشر سنة من الجهاد ضد العدو الفرنسي. إذ يقول الأمير عبد القادر: فتبين من هذه الأمور التي ذكرناها والنصوص التي جلبناها أنه ليس المقصود من الجهاد والقتل إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال. و إنما المقصود به دفع ضرر عن الأمم والظلم ورفع كلمة الإسلام، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ما وجب القتال لأن الحكم يسير مع العلة وجودا وعدما، كما إذا أطاع العدو بدفع الجزية فإنه يحرّم قتاله لأنه قد تحقق عدم الضرر منه حينئذ.[16]

ثم إن الأمير يتطرق إلى الوفاء بالعقود وهذا بمثابة صفعة في وجه المستعمرين الذين تقضوا العهد الذي أبرموه مع الأمير عبد القادر وهو يقول في هذا الموضوع ما يلي قال الله تعالى:{ يا أَيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} الآية 1 سورة المائدة. معنى الآية الأمر بالوفاء وهو القيام بمقتضى العهد. والعقود هي

---

[15] - الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص137

[16] - نفس المرجع ، ص137 .

العهود الموثقة، أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء فيما يعقدون. كال تعالي:{ **ولكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين و آتى المال على حبّه ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و السائلين و في الرقاب و أقام الصلاة آتى الزكاة و الموفون بعهدهم اذا عاهدوا** } الآية 177 سورة البقرة .

قال البيضاوي: البر كل فعل مرض والآية كما ترون جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس. ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا إلى إيمانه واعتقاده،، وبالتقوى اعتبارا لمعاشرته للخلق. ومعاملته مع الحق، وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله: "من عمل بهذه الآية قفد استكمل الإيمان". وهذه الآية تضمنت ستة عشرة قاعدة فقهية ".[17] ثم يتحدث الأمير عبد القادر عن الذين ينفضون العهود ومكانتهم الدنيا في الإسلام فيقول باستدلاله بالآيات القرآنية ما يلي: 'وقال تعالى في ذم الذين ينقضون العهود **{إنْ شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون (55) الْذِين عاهدت منهم ثم ينقظون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون } الآية 56-55 سورة الأنفال**. معنى الآية ذم من لا يفي بالعهد، وقوله وهم لا يتقون أي لا يخافون سبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار والنار.

وقال تعالى: **{وبعهد الله أوفوا ذلكم وصآكم به لعلكم تذكرون** " الآية 152 سورة الأنعام. وقال تعالى: **{خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين}** الآية 199 سورة الأعراف. قال ابن جزي: المعنى خذ من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما يتيسر لا ما يشق عليهم. وأمر بالعرف أي بالمعروف وهي أفعال الخير. وأعرض عن الجاهلين أي لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم واحلم عليهم"[18]. ثم يواصل الأمير كلامه عن نقض العهد في

[17]- الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص139

[18]-الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص 139

الإسلام وهو بهذا ينبه المستعمر الفرنسي إلى العار الذي أتاه من خلال عدم وفائه بالعهد الذي كان بينه وبين الأمير ونحن نلاحظ مدى تفصيل الأمير لهذا الموضوع فهو يناضل بقلمه كما ناضل من قبل بسيفه وعليه نقول لمن يظن أن الأمير توقف عن النضال والجهاد بسجنه أنه مخطئ فالأمير من خلال كتابه المقراض الحاد يناضل. فهو يقول أمام الملا بأن العدو الفرنسي ناقض للعهود، وهو الذي تباهى بأنه صاحب حضارة عالمية ترعى حقوق الإنسان وتسعى إلى نشر قيما في الدول المستعمرة ومنها الجزائر.

ويواصل إذن الأمير في سرد أدلته وهي من القرآن والسنة النبوية إذ يقول: "ولما نزلت هذه الآية (الآية 199 سورة الأعراف) سأل رسول الله صلى الل عليه وسلم جبريل عليه السلام عنها فقال: لا أدري حتى أسأل. ثم رجع فقال: يا محمد ربك يأُمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه السلام فيها بمكارم الأخلاق. وقال تعالى: **{و إما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين} الآية 58 –سورة الانفال .** قال المفسرون: معنى الآية أمر الله تعالى نبيه إذا عاهد قوما من العدو وظهرت من العدو علامة تقض العهد أن يطرح لهم العهد ويخبرهم إخبارا مكشوفا أنه نقض العهد الذي بينه وبينهم ؛ ولا يعاجلهم بالحرب وهم على توهم ببقاء العهد. حتى يعلمهم ويأخذوا حذرهم ويستعدوا، ومن لم يفعل هذا يكون خائنا في العهد. والله لا يحب الخائنين في العهود.

ويواصل الأمير سرد الأدلة على وجوب الوفاء بالعهود قائلا: وقال تعالى:**{ براءة من الله و رسوله الى اللذين عاهدتم من المشركين (1) فسيحوا في الأرض أربعة أشهر}** الآية 1-2 سورة التوبة .

قال أهل التفسير: كان عليه السلام قد عاهد الكفار المشركين إلى أجال معدودة. فمنهم من وفى فأمر الله أن يتم عهده؛ ومنهم من نقض أو قارب النقض فجعل له أربعة أشهر يسير آمنا وبعدها لا يكون له عهد. قال تعالى **{ان الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا و لم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين }** قال البيضاوي في معنى الآية كأنه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد مع الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم ثم لم

ينقضوكم شيئا من شروط العهد وثم ينكثوا ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط ولم يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم فأتموا إليهم عهدهم إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين. إن الله يحب المتقين على أن تمام عهدهم من باب التقوى. وقال تعالى: **{ و إن أحدٌ من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون }** الآية 6 سورة التوبة. قال البيضاوي معنى الآية وإن أحد من المشركين المحاربين استجارك و استأمنك وطلب منك جوارك فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ثم أبلغه مأمنه موضع أمنه إن ثم يسلم ذلك الأمن فإنهم قوم له يعلمون ما الإيمان وما حقيقة اما تدعوهم إليه. لابد من إيمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون[19]. فتبين من هذا الدليل الأخير كيفية تعامل الأمير عبد القادر مع أعدائه المستعمرين. فقوانين الحرب في دولته أثني أسسها في الجزائر مستمدة من الكتاب والسنة النبوية وكانت كلها أخلاقا سامية كما رأينا في (شخصية الأمير عبد القادر) من شهادات أعدائه أنفسهم وسمو أخلاقه معهم.

ثم يواصل الأمير سرد الآيات التي تبين كما أسلفنا قوانين الحرب التي كان يعتمد عليها في مقاومته العسكرية فيقول: "وقال تعالى : (إنْما يَتذكّر أولوا الألباب (19) الذِين يوفُون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (20) وَالّذينَ يَصلون ما أمر الله به أن يوصل) آية 21 سورة الرعد. معنى الآية أنه لا يتفطن إلا أصحاب العقول المبرأة عن معارضة

الوهم الذين لا ينقضون ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين عباد الله ويصلون ما أمر الله يه أن يوصل كالإيمان بجميع الأنبياء ومراعاة حقوق جميع الناس، أكانت بالعهد والميثاق أو بغير ذلك.

وقال تعالى: **(وَأُوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون)** الآية 91 سورة النحل. قال البيضاوي: أوفوا بعهد الله كل أمر يجب الوفاء به ولا تنقضوا الإيمان

[19] -الأمير عبد القادر الجزائري ، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل و الإلحاد** ، مرجع سبق ذكره ، ص 140 .

مطلق الإيمان. وكال ابن جزي والإيمان هنا ما يحلفه الإنسان في حق غيره أو في معاهدته لغيره. وقد جعلتم الله عليكم رقيبا أي رقيبا ومتكفلا بوفائكم بالعهد. إن الله يعلم ما تفعلون في نقض الإيمان والعهود.

قال تعالى: **{ و أذكر في الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد و كان رسولا نبيا }** الآية 54سورة مريم و قال تعالى : **{ و أوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا }** الآية 34 سورة الاسراء .قال البيضاوي مسؤولا يطلب من المعاهد ألا يضيعه ويفي به أُو مسؤولا عنه يسأل الناكث ويعاتب عليه.وقال تعالى: **{ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى}** الآية 8 سورة المائدة . المعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للكفار على ترك العدل فيهم. فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد. اعدلوا هو أقرب للتقوى، صرح لهم الأمر بالعدل وبيّن أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى وقال تعالى: **"إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله.'**

وقال تعالى: **{يا أيّها اين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون (2) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون }** الآية 2 سورة الصف[20].

تكلم الأمير عن العدل ومدى أهميته في التعامل مع الناس ولاسيما الأعداء ولقد كانت شيمته للعدل في تعامله مع المستعمر الفرنسي إلى آخر لحظة من المقاومة العسكرية التي كادها وحتى في تعامله الدبلوماسي معهم.

ثم أورد الأمير في سياق حديثه عن الوفاء بالعهد إحدى الروايات التي ذكرت حول كتاب رسول الله صلى اله عليه وسلم إلى المقوقس فيقول: أن النبي صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة للهجرة قال:" أيها الناس أُيّكمِ ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر" فقال حاطب بن أبي بلتعة أنا يا رسول الله فأخذ حاطب الكتاب وجاء به حتى دخل على المقوقس بالإسكندرية بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده ، فسأل عنه فأخبر أنه في مجلس مشرف على للبحر، فركب

[20]- الأمير عبد القادر الجزائري المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد مرجع سبق ذكره ص 139

[20]-نفس المرجع، ص 141-142.

حاطب سفينته وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره إليه. فلما جيء به نظر إلى الكتاب وقرأه وقال الحاطب: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها. و استعاد الكلام من حاطب مرتين فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله تعالى ، لماذا لم يدع على اليهود عندما أرادوا قتله؟ قال: أحسنت أنت حكيم جاء من حكيم. ثم قال له حاطب: إن هذا النبي دعا للناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد عليهما السلام. وما دعاءنا إياك إلى القرآن إلا كدعائكم لأهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام. فقال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي ، وكنت أظن أنه سيخرج من الشام. وقد أكرمت رسولك. وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وثيابا وطيبا وألف مثقال من الذهب وفرسا و بغلة و أرسل مع الهدية طبيبا.

فقيل صلى الله عليه وسلم الهدايا و أعاد الطبيب قائلا له: ارجع إلى بلادك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع و إذا أكلنا فلا نشبع. وذكر كتاب السيرة عن المغيرة بن شعبة أنه لما خرج مع بني مالك للمقوقس وذلك قبل إسلام المغيرة بن شعبة؛ قال لهم المقوقس: كيف خلصتم إلى محمد وأُصحابه بيني وبيتكم؟ قالوا ألصقناهم بالبحر قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد. قال: ولم ذلك؟ قالوا: **جاءنا بدين مجرد لا يدين به الآباء ولا يدين به الملك ، ونحن على ما كان عليه آباؤنا قال: فكيف صنع قومه؟** قالوا: تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب في مواطن ، مرة تكون عليهم ، ومرة تكون لهم . قال: ألا تخبروني إلى ماذا يدعو؟ قالوا: يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له وتخلع ما كان يعبد الآباء ويأمر بصلة الرحم و وفاء العهد وتحريم الزنى و الربى. ولا يأكل ما ذبح لغير الله قال هو نبي مرسل للناس كافة ، و لو أصاب القبط الروم تبعوه. وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم؛ وهذا الذي تصفون منه بعثت به الأنبياء من قبله؟وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ويظهر دينه إلى منتهى الحق ومنقطع البحور قلنا: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا فقال: إثم ، ثم قال: كيف نسبه في قومه؟ قلنا: هو أفضلهم نسبا. قال:

فكيف صدق حديثه؟ قلنا: ما يسمى إلا الأمين من صدقه قال: انظروا إلى أموركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله ، وماذا قال اليهود؟ قلنا: خالفوه قال: هم قوم حسد حسدوه وهم يعرفون من أمره مثلما نعرف. قال المغيرة ، فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاما ذللنا لمحمد "[21] .

نلاحظ من خلال رواية الأمير عبد القادر لهذه القصة تأكيده على وجوب الوفاء بالعهد في الإسلام. كما أن كل الأنبياء جاءوا بذلك أيضا وذلك من خلال سؤال المقوقس صاحب مصر عما يدعو إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم والإجابة التي رد بها أعداء الرسول (ص) كانت: "يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ويخلع ما كان يعبد الآباء ويأمر صلة الرحم و وفاء العهد وتحريم الزنى والربى ، ولا يأكل ما ذبح لغير الله ، فرد عليهم المقوقس بأن هذا ما جاء به كل الأنبياء من قبله.

إن الأمير عبد القادر يواصل سرد الروايات التاريخية التي تؤكد على ضرورة الوفاء بالعهود فيقول: "وذكر في كتب السيرة أن المسلمين لما قاتلوا الفرس طاردوهم فلحق سماك بن عبيد عظيما من عظمائهم يقال له دينار ، فسأله الأمان فأمنه وأدخله على أمير الجيش حذيفة ، فصالحه على البلد وقال إن لكم لوفاء بالعهد وأخاف عليكم خمسة أشياء ، الخبء والبخل والغدر والخيلاء والفجور، وأضاف: يأتيكم الخبء من قبل القبط و الخيلاء من قبل الروم والبخل من قبل فارس و الغدر والفجور من قبل الأهواز. وذكر أبو جعفر الطبري أن جند الإسلام لما حاصروا جنديا صبور واخذوا يناوشونهم القتال وإذا بالمسلمين يوما يفاجؤون بأبوابها تفتح. ثم خرج الناس و خرجت الأسواق وأنبتت أهلها ، فأرسل إليهم

المسلمون أن ما لكم؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه فقال المسلمون ما فعلنا وقال أهل جند ياسبور ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يرعى الغنم أصله منها هو الذي كتب لهم أمانا ورمى به إليهم من فوق السور،" فقال

[21] الأمير عبد القادر الجزائري ، القراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل و الإلحاد ، مرجع سبق ذكره ص 143.

المسلمون: إنما هو عبد قال للعدو: نحن لا نعرف حركم من عبدكم فقد جاءتا أمان فنحن عليه" [22].

ويذكر الأمير عبد القادر روايات أخرى عن الوفاء بالعهود في التاريخ الإسلامي. إلى أن يقول فيما يتعلق بنقض العهد: " فالإمام إذا استشعر خيانة العدو ينقض العهد نبذ العهد ورده إليهم وجوبا ، وأخبرهم أخبارا مكشوفة فإنه لم يبق عهد بينه وبينهم ليتأهبوا ويأخذوا حذرهم. قال الشيخ خليل: " وإن استشعر خيانة نبذه وأنذرهم، قال القاضي أبو بكر بن العربي إن قيل كيف ينقض العهد المتيقن بالخوف هو ظني، قيل إذا ظهرت آثار الخيانة والنقض منهم ودلت على ذلك دلائل وجب نبذ العهد خوف الوقوع في التهلكة بالتمادي. وسقط اليقين هنا بالظن للضرورة بهذه الجزئيات التي ذكرناها تدل وتبين أن الوفاء والصدق له مكانة عظيمة في شرع الإسلام[23].

ثم يخبر الأمير عبد القادر المستعمر الفرنسي عن أن الأمة العربية أكثر و أشد الأمم التي تفي بالعهد وتستقبح الغدر وهذا تصريح واضح للأعداء عن فداحة فعلتهم بحق الأمير وأهله و أنصاره. وفي هذا الصدد يقول الأمير: " والأمم وإن كانت تفي بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالأمة العربية أكثر و أشد من جميع الأمم في ذلك لأنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية ، و أخلاق مرضية، وفعال كريمة؛ وهمم عظيمة؛ وعقول راجحة وآراء ناجحة ، وشرف صميم ، وأنفة من كل خلق ذميم ، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة . قال مؤلف الدر و العفيان ، الإمام الحافظ التونسي

روى عن شبيب بن أبي شيبة قال: كنا في مجلس اجتمع فبه كثير من الأشراف فورد علينا ابن المقفع و كان من أشراف الفرس. و حكمائها وعلمائها و عقلائها فقال لنا: من أفضل الأمم؟ فنظر بعضنا إلى بعض وقلنا لعله يميل إلى أصله. فقلنا فارس؛ فقال ليسوا هناك ملكوا كثيرا من الأرض، وحووا عظيما من الملك ولبثوا في ذلك دهرا فما استنبطوا بعقولهم شيئا فقلنا الروم إذا. فقال

[22]- الأمير عبد القادر الجزائري ، القراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل و الإلحاد ، مرجع سبق ذكره ص 144.

[23]-نفس المرجع ص 146.

أصحاب صنعة: فقلنا الصين، فقال: أصحاب طرفة فقلنا الهند فقال: أصحاب فلسفة ، فقلنا: الترك. فقال: أصحاب تربية. ففلنا: الخزر فقال: نعم سائمة. فقنا: فمن؟ فقال: أفضل الأمم العرب. فضحكنا، فقال: إني ما أردت موافقتكم. ولكن إذا فاتني حظي من النسب. فلا يفوتني حظي من المعرفة والأدب[24].

إذن نلاحظ أن الأمير عبد القادر يعتز بنسبه وانتمائه إلى أمة العربية وهو يعرفهم بتاريخها فيقول عنهم -كما اوردنا آنفا- أنهم في جاهليتهم كانت لهم نقوس زكية: وأخلاق مرضية؛ وأفعال كريمة. وهمم عظيمة، وعقول راجحة وآراء ناجحة. وشرف صميم؛ وأنفة من كل خلق ذميم ، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون دينهم النبوة". فالأمير عبد القادر ينفي عن الشعب الجزائري الذي ينتمي إلى الأمة العربية صفة التوحش التي أراد المستعمر إلصاقها به. كما أنه ينسب إليها الأخلاق الفاضلة التي عمل المستعمر كل ما في وسعه لكي ينفيها عن هذه الأمة.

وفي آخر هذا الباب المتعلق بالوفاء بالعود عند المسلمين يورد بعض الأقوال والحكم التي تتعلق بالصدق والوفاء بالعهد والعدل والمروءة والشهامة حيث يقول: " قال بعضهم: وجاهة العقل اوقع في النفوس. ومخالفة الفعل للقول تنكس الرؤوس وقال بعضهم وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل. وقال بعضهم: شر الناس من يفتقد الأمانة ولا يتجنب الغدر والخيانة. وقال بعضهم: سعادة الإنسان في سلامة الصدر وصدق اللسان.

وقال بعضهم: الفاضل يعجل بالوعد قولا وبعقبه بالإنجاز فعلا. وقال بعضهم: الخلف إنما يتصل باللئام من الأنام، و يأباه لخسته وشناعته وهو من أركان النفاق و مساوئ

الأوصاف ورديء الأخلاق. وقال بعضهم: الكذب يزيل الهيبة ويذهب بهاء الوجه..."[25]

---

[24]-نفس المرجع، ص 147

[25] الأمير عبد القادر الجزائري ، المقراض الحاد قاطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل و الإلحاد ، مرجع سبق ذكره ، ص 147

ومما سبق يتبين بأن الأمير عبد القادر قاوم بقلمه كما قاوم من قبل بسيفه، فها هو يعزي و يفضح أفعال المستعمر الفرنسي الذي يحاول بالقوة اخضاع الشعب الجزائري له بجعل أبنائه عبيدا للفرنسيين؛ كما حاول محو ثقافته العربية الإسلامية، إلا أن الأمير عبدالقادر كان له بالمرصاد فها هو يعتز بثقافته العربية الإسلامية التي تفي بالعهد و تستقبح السيطرة على الشعوب .

المقاومة الثقافية في كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

1-أسباب كتابة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

كان للأمير كما يقول الدكتور عبد الحميد حاجيات[26]، أثناء اعتقاله بفرنسا أنصار من الفرنسيين، أعجبوا ببطولته واقتنعوا بشهامته ونبله، ودافعوا عنه إلى أن أطلق سراحه، ونال الأمير احترام الجمهور الفرنسي وتقديره، فاكتسب شعبية لا مثيل لها وأصبح رجل الساعة وصار كبار الدولة يتنافسون في الحصول على صداقته، فينظمون الحفلات على شرفه ويستدعون الطبقة الراقية إليها، ولقد حظي الأمير بإعجاب الجميع لما أبداه من رباطة جأشه ودماثة أخلاقه ورقة مشاعره وبداهة أجوبته.

ولما استقر في مدينة برسا، أبلغته الجمعية الأسيوية من باريس أنها قررت قبوله كعضو من أعضائها، وعالم من علمائها، فرأى الأمير عبد القادر أن يؤلف كتابا ويبعث به إلى هذه الجمعية لتكون عضويته فيها قائمة عن مساهمة فعلية في المجال الفكري، وأرسل إليها كتابا عنوانه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، وقد طبع بدون تاريخ وترجم إلى الفرنسية مرتين، أولاهما 1858، والثانية سنة 1877.

2- مواضيع كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل":

لقد قسم الأمير كتابه هذا إلى ثلاثة أبواب وخاتمة[27]، وفي كل باب: فصل وتنبيه وخاتمة أما المقدمة، ففي الحث على النظر وذم التقليد، وأما الباب الأول ففي فضل العلم والعلماء وفيه فصل في تعريف العقل الذي به إدراك العلوم وتكملة في القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان يكون إنسانا كاملا. وتنبيه في:

[26]- د. عبد الحميد، حاجيات، الأمير عبد القادر و انتاجه الأدبي ، مرجع سبق ذكره ، 88 .

[27]- الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص 30-31 .

فضل إدراك العقل، على إدراك الحواس، وفضل مدركات العقل على مدركات الحواس. وخاتمة: في انقسام العلم إلى محمود ومذموم. وأما الباب الثاني، ففي العلم الشرعي وفيه فصل في: إثبات النبوة، التي هي منبع العلوم الشرعية وفيه تنبيه في: معرفة النبي وما يتعلق بالنبوة. وخاتمة في: المكذبين للأنبياء. وأما الباب الثالث: ففي فضل الكتابة وفيه فصل في: الكلام على كتابات الأمم ومن وضعها وما ينجر إلى ذلك. وتنبيه في: بيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة في: احتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق به. فأما في الباب الأول فهو يتضمن الحديث عن العلم وفضله والعقل وميزته على الحواس وانقسام العلوم إلى محمودة ومذمومة.

وفيه يقول مبينا فضل العلم: "وأما شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات فهي العلم وبها كماله. إذ كمال كل شيء وإنما يكون بظهور خاصيته التي امتاز بها عن غيره ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية. وخاصة الإنسان هي معرفة حقائق الأشياء على الوجه الذي هي عليه بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ويتيقن حقائقها منكشفة له وبكمال هذه الخاصية ونقصانها يفضل بعض أفراد الإنسان بعضا إلى أن يعد واحد بألف (كما ورد في قول الشاعر).

ولم أرى أمثال الرجال تفاوتت إلى المجد حتى عد ألف بواحد

و قوله:

و الناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن هو أمر

ولا شيء أقبح من الإنسان مع ما فضله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم، أن يهمل نفسه و يعريها من هذه الفضيلة.

و لم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على الكمال[28]

ثم تحدث الأمير عبد القادر عن الفضائل التي ينبغي توفرها لدى الإنسان الكافل فقال قوة العقل هي إحدى القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان يكون إنسانا كاملا، وهي قوة العقل وقوة الشجاعة وقوة العفة وقوة العدل، فأمهات

[28]- الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، نقلا عن عبد الحميد الحاجيات ، و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص89.

الفضائل هي الأربعة: العلم، الشجاعة، العفة والعدل فمن جمع هذه الأربعة على الكمال استحق أن يكون بين الخلق ملكا ومطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به[29]. ثم يضيف قائلا: "ومن تعرى عن هذه الأربعة كلها واتصف بأضداده، استحق أن يخرج من بين العباد ويطرد من البلاد". وهذه الجملة الأخيرة التي لا توجد إلا في النسخة المخطوطة قد تبدو في غاية التشدد والعنف، الأمر الذي جعل ناشر الكتاب يحذفها في طبعته غير أنها تتفق إلى حد بعيد مع ما اتصف به الأمير من حزم وصرامة في تطبيق الشريعة.

ثم يعالج الأمير موضوع طرق إدراك الحقائق، ويقارن بين الحس والعقل فيبين أن الحس قد يخطئ في إدراكه فإنه يدرك الصغير كبيرا كالنار البعيدة في الظلمة... ويرى الموجود معدوما كالتراب في الصحراء فإنه يرى ماء ثم يواصل الأمير حديثه قائلا: "ولهذا قال أفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس: الحسيات غير يقينية، بمعنى أن جزم العقل بالحسيات ليس بمجرد الحس، بل لابد مع الإحساس من أمور تنضم إلى الحس لا تعلم ما هي وحينئذ يجزم العقل بما جزم به من المحسوسات. وهذه القوة العقلية، باعتبار إدراكها للكليات والحكم بينها بالنسبة للسلبية والإيجابية، تسمى العقل النظري وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية مما ينبغي أن يفعل أو يترك، تسمى العقل العملي.

وقد اعتن علماء فرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه فاستخرجوا الصنائع العجيبة والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدمين وأعجزوا المتأخرين، رقوا بها أعلى المراقي وحصل لهم بها الذكر الباقي فلو استعملوا مع هذا العقل النظري في معرفة الإله وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السموات والأرض وما يلزم للإله من الكمال وما يتقدس عنه من النقص، وما يمكن في حقه أن يفعله وأن لا يفعله لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك والمزية التي لا تشرك ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى أنه لا يسمع منهم لها ذاكر ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر...[30]."

---

[29]- نفس المرجع ، ص 89 .

[30]- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل، مرجع سبق ذكره ، ص 30-31 .

أما الباب الثاني، فإنه يهدف إلى إثبات العلم الشرعي ويدور خاصة حول إثبات النبوة، وحاجة الإنسان إلى العلوم الدينية، فيما يصلحه في حياته الروحية ومعاملته للناس وغير ذلك ويطرق موضوع اختلاف الناس في الدين وتعصب بعضهم ضد الآخر وموقفه من ذلك فيقول:

"الدين واحد باتفاق الأنبياء، وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية فهم كرجال أبوهم واحد وأمهاتهم متعددة، فتكذيب جميعهم أو تكذيب البعض وتصديق البعض قصور. ولو أصغى إلى المسلمين والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا، ولكن لا يصغون إلى ما سبق في علم الله أنه لا يجمعهم على رأي واحد ولو جاء من يريد معرفة طريق الحق، وكان يفهم لساني فهما كاملا. لأوصلته إلى طريق الحق من غير تعب لا بأن يقلدني بل يظهر له الحق حتى يعترف به اضطرارا وعلوم الأنبياء من حيث خطابهم للعامة دائرة على ما يصلح الناس في معاشهم ومعادهم وما جاؤوا ليجادلوا الفلاسفة ولإبطال علوم الطب ولا علوم النجم ولا علوم الهندسة، وإنما جاؤوا باعتبار هذه العلوم على وجه لا يناقض التوحيد ونسبة كل ما يحدث في العالم إلى قدرته وإرادته سبحانه. فما جاؤوا لمنازعة من يقول الجسم مركب من العناصر الأربعة، ولا من يقول أن الأرض كروية الشكل، ولا من يقول أن خسوف القمر بسبب توسط الأرض بينه وبين الشمس، فإن أمثال هذه الأمور لا تضاد ما جاءت به الأنبياء، وبحث الأنبياء في العالم إنما هو عن كونه حديثا أو قديما، ثم إذا ثبت حدوثه فسواء كان كرة أو بسيطا وسواء كانت السماوات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة أو أقل أو أكثر، فالمقصود كونه من فعل الله، ومن قال هذا مناقض للدين أو المنازعة فيه من الدين، فقد جنى على الدين وضرر الشرع من جهة من ينصره لا بطريقة أكثر ممن يطعن فيه[31].

ويختم هذا الباب بقوله: " إن المكذب للأنبياء المستغني بعقله عما طووا به من الأعمال والعبادات، مغرور، وكل ما جاء في فضل العلم وذم الجهل ، فهو دليل

[31]- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل، مرجع سبق ذكره، ص 107-108 .

على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه..."[32].

وأما الباب الثالث والأخير، فإنه يتناول موضوع الكتابة وفضلها وأنواع الكتابات عبر العصور، ومنزلة الكتابة العربية منها، وينتهي هذا الباب بخاتمة انتصر فيها الأمير للتجديد والإبداع فقال: "من الناس من ينكر التأليف والتصنيف وكتابة العلوم في هذا الزمان وهذا الإنكار خطأ، إذ لا وجه لإنكار التصنيف إذا صدر من العلماء الكاملين البالغين مرتبة التصنيف، وإنما يحمل هذا المنكر على إنكار التنافس والحسد الجاري بين كل متعاصرين، ولله در من قال:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا إن ويرى الأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان حديثا وسيبقى هذا الحديث قديما

ثم ينتقل إلى الحديث عن التصانيف وأنواعها من حيث الحجم ومن حيث النوع وكيفية التصنيف، منتهيا بعرض موجز حول نشأة حركة تدوين العلوم في الإسلام وحركة ترجمة كتب الحضارات القديمة في الدور الأول من الخلافة العباسية وأخيرا تعالج خاتمة الكتاب، موضوع انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب مستعرضا أمم العالم المشهورة بدورها الحضاري والفكري، كالهنود والفرس واليونان والروم والفرنج والعرب والعبرانيين.

وتنتهي الخاتمة بنظرية مفادها أن تفاوت الناس في العقول والأخلاق والمعارف راجع إلى اختلاف موقع بلدانها من خط الاستواء وما يترتب عن ذلك من اختلاف في تأثرها بحركة الكرة الأرضية حول الشمس.

يقول الدكتور عبد الحميد حاجيات: عن كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل "ينبئنا عن سعة ثقافة الأمير ومواقفه من الحضارة الغربية المعاصرة له ومدى تأثره بما امتازت به هذه الأخيرة من اختراعات وازدهار صناعي وعلمي والذي يمكن استخلاصه هو أن الأمير لم يحد عن أصالة الثقافة العربية الإسلامية وإنما

[32]- الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص 109 .

يحاول الخروج من التقوقع والتزمت والتفتح على ما طرأ من تقدم على الحضارة الإنسانية بغية الالتحاق بركب الدول المتقدمة[33].

3- المقاومة الثقافية في كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل":

ربما المقاومة الثقافية في هذا الكتاب تتجلى من خلال حديثه عن أصول العلوم من الفلاحة، الحياكة، السياسة والحجامة فهو يخبر علماء باريس بأن الجزائر مجتمع يحتوي على العلماء والعلوم على عكس ما يصوره المستعمر الفرنسي من أن هذا الشعب متوحش ليس لديه علوما ولا صنائع وفي هذا الصدد يقول: "ولما كان العلم، هو كمال الإنسان، كان كل إنسان محبا للعلم بالطبع ويشتهيه ويفرح إذا نسب إلى العلم ولو قليلا، ويحزن إذا دفع عن رتبة العلم ويتلذذ الإنسان بالعلم لذاته ولكماله لا معنى آخر وراء الكمال..."[34]. ونجد الأمير هنا يتحدث عن العلم والعلماء وعن فضل العلم، وهو يقول: "وإذا ثبتت فضيلة العلم كان تعلمه أفضل وبيانه أن مقاصد الخلق ، مجموعة في انتظام الدين و الدنيا ، ولا نظام للدين ، إلا بانتظام الدنيا ، و ليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم وصناعاتهم وحرفهم تنحصر في ثلاثة أقسام: أحدها، أصول لا قوام للدنيا إلا بها، وهي أربعة، الزراعة وهي للمطعم، والحياكة وهي للملبس، والبناء وهو للمسكن، والسياسة وهي للتآلف والاجتماع والتعاون على أسباب أمر المعيشة.

القسم الثاني: ما هي مهيأة لكل واحد، من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها. القسم الثالث: ما هي متممة للأصول، كالطحن والخبز للزراعة وكالقصارة والخياطة للحياكة وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي وأشرف الصناعات أصولها السياسية ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال في من يتكفل بها، ما لا تطلبه سائر الصناعات. فلذلك يستخدم صاحب هذه الصناعة جميع أصحاب الصناعات[35].

---

[33]- عبد الحيد حاجيات ، مرجع سبق ذكره ، ص 92 .

[34]- الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص 41 .

[35]- الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص 47 .

ثم يتحدث الأمير عن التفاضل بين هذه العلوم فيقول: "وشرف العلوم والصناعات، يدرك بثلاثة أمور: إما بالالتفات إلى الآلة التي يتوسل بها إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية، على العلوم اللغوية إذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع والعقل أشرف من السمع وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة وإما بالنظر إلى المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة[36].

كما أن الأمير تحدث في هذا الكتاب عن القوى الأربع التي لا يكتمل الإنسان إلا بها وهي: قوة العقل وقوة الشجاعة وقوة العفة وقوة العدل وقد كان قد تناولها بالدرس في كتابه المقراض الحاد.... كما رأينا سالفا. ثم إن الأمير يتحدث عن العلوم الشرعية وأهميتها للإنسان وهو يقول في هذا الصدد: "فالعلوم التي تحل في العقل تنقسم إلى: عقلية وشرعية. أما العقلية، فنعني بها: ما تحكم به غريزة العقل، ومن غير تقليد وسماع. وهي تنقسم إلى: ضرورية، كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في آن واحد وبأن الشيء لا يكون موجودا معدوما وإلى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال والنظر.

وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء، وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل: التوراة، الإنجيل، الزبور والفرقان، وفهم معانيها بعد السماع وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض"[37].

والأمير يتحدث عن العلوم الشرعية بوصفها العمود الفقري للأمة الإسلامية بل للحضارة الإنسانية، وبذلك فهو يشير إلى أن المستعمر لا يستطيع النيل منها والقضاء عليها في المجتمع الجزائري. ثم يتحدث عن الكتابة وفضلها فيقول فيها: "والكتابة أشرف، وأنفع من الإشارة واللفظ. لأن القلم، وإن كان لا ينطق، فإنه يسمع أهل المشرق، وأهل المغرب. فما جمعت العلوم ولا قيدت الحكمة ولا ضبطت أخبار الأولين و مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا الكتابة ما استقام للناس دين ولا دنيا..... ومن فضل بيان البنان، أن ما تثبته الأقلام باق مع

[36]- نفس المرجع ، 48 .

[37]-نفس المرجع ، ص 83 .

الأيام وبيان اللسان تدرسه الأعوام وقوام الدين والدنيا بشيئين: السيف والقلم. والسيف تحت القلم ولله در من قال

كذا قضى الله للأقلام مذ بري أن السيوف لها -مذ أرهفت-خدم[38]

يتبين مما سبق أن الأمير عبد القادر يقر بأهمية القلم إلى جانب السيف فلسان حاله يقول أنه مازال مجاهدا مادام يرفع القلم في وجه الأعداء.

والأمير يواصل سرد أهمية الكتابة في تطور العلوم فيقول: "عقل الإنسان الواحد، لا يقدر على استنباط العلوم الكثيرة، فصار الإنسان، إذا استنبط مقدارا من العلم أثبته بالكتابة. فإذا جاء إنسان آخر ، و وقف عليه قدر على إستنباط شيء آخر ، زائد على ذلك الأول ، فظهر أن العلوم إنما كثرت بإعانة الكتابة".[39]

ثم يتحدث الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية في ضوء حديثه عن كتابات الأمم فيقول: "وأما الكتابة العربية، فالصحيح، أن أول من خطّ بالعربي مرامر بن مرّة. وكان يسكن الأنبار. ومن الأنبار انتشرت الكتابة في العرب. واصل الخط العربي، هو الخط الكوفي .

والنقط، حادث في الخط العربي، حدث بعد الإسلام والذي نقل الكتابة ، من الأنبار إلى الحجاز، حرب بن أميّة، جد الملوك الأموية، وهذه الطريقة الموجودة الآن، أخرجها من خط الكوفيين وأبرزها في هذه الصورة، أبو علي محمد بن مقلة، وزير المقتدر بالله العباسي. ثم جاء بعده، أبو الحسن علي بن هلال، المعروف بابن البواب ، فهذّب هذه الطريقة ، وكساها طلاوة وبهجة، وهذه الكتابة العربية، قريبة الحدوث لأن العرب كانوا أهل حفظ ورواية. أغناهم حفظهم عن الكتابة. وكانت أشعارهم هي دواوين تواريخهم[40]، وضابطة لأيامهم و حروبهم. ولم يكن فيها عالم معروف، ولا حكيم مذكور.

إن الأمير عبد القادر معتز بانتمائه إلى الأمة العربية الإسلامية فهو يقدم نفسه للعالم من خلال كتابته عن لغته العربية، كما أنه يناضل ويقاوم مقاومة ثقافية من خلال كتابته عن اللغة العربية ولسان حاله يقول: "اللغة العربية هي

---

[38]-الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص 116-117

[39] نفس المرجع ص 119.

[40] ا لأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ص 124.

لغة الجزائريين وهم معتزون بها، ومتمسكون بها، ولا يريدون أن تحل اللغة الفرنسية محلها". فهاهو يتحدث عن الحروف العربية قائلا: "حروف الكتابة العربية، أكثر من حروف جميع كتابات الأمم فإنها ثمانية وعشرون حرفا وهي: "أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، تخذ، ضطغ" ويعبرون عنها "بأبجد". وهي عبارة عن ثمان كلمات مشهورة مفتتحة بهذه الكلمة جمع فيها حروف الكتابة العربية بلا تكرير. وقد جرت العادة بتعليمها المبتدئين، بعدما علموهم حروف الهجاء مفرداتها ومركباتها الثنائية، على ترتيب مألوف للطباع، منشط لهم، على أخذه وضبطه والفائدة في ذلك هو التنبيه للمبتدئ بعد تعلمه المفردات والثنائيات أن في الكلام تركيبات ثلاثية ورباعيات غير منتظمة على نظام مألوف ليستأنس بوقوع المخالفة بين الحروف، فيسهل عليه الشروع في الكلام المطلق[41]. وفيه فائدة أخرى، وهي إيناس المبتدئين بألفاظ مستعملة، في معنى من المعاني، بعدما كانوا يستعملون تركيبات من الحروف مهملة، لا معنى لها. ويؤيد هذا، أن معنى أبجد، أخذ، ومعنى هوّز ركّب، ومعنى حطي،31 .وقف على المقصود. ومعنى كلمن، صار متكلما. ومعنى سعفص، أسرع في التعلم. ومعنى قرشت، أخذه بالقلب. ومعنى تخذ، حفظ. ومعنى ضطغ، أتّم. وتكون كلها على صفة الماضي، من الثلاثي أو الرباعي. فمعنى المجموع على ترتيبها: "أخذ، ركب، وقف على المقصود، صار متكلما، أسرع في التعلم، أخذه بالقلب، حفظ، أتمّ. وعلى هذا، يمكن اعتبار فائدة أخرى فيها، وهي تأليف المبتدئين بالمعاني المربوطة ببعضها البعض بنوع من الارتباط ليتفطن المتعلم الذكي إذا عرفها إلى أن الأهم له، اللائق به، في حال التعلم، ما يفهم من هذه الكلمات من: الأخذ، التركيب، الوقوف على المقصود، تكرار التكلم، الإسراع في التعلم، والإقبال عليه بالقلب، وحفظه له والقيام بحقه من الإتمام وغيره.

وأما قول صاحب القاموس، وأبجد إلى قرشت، وكلمن رئيسهم، ملوك مدين. وضعوا الكتابة العربية، على عدد حروف أسمائهم، هلكوا يوم الظلة.... إلى أن قال: ثم وجدوا بعدهم: ثخذ ضظغ، فسموها الروادف.. فهو قول غريب، من

صاحب القاموس، بعيد عن الصواب، لا تخفى غرابته، من وجوه كثيرة وهذه الكلمات الثمانية، فدعوا عليها، من قديم الزمان، الحساب المشهور "الجمل" (بضم الجيم، و فتح الميم)، فإن جميع حروف الهجاء، المجموعة فيها: ثمانية وعشرون حرفا، فجعلوا سبعة وعشرين حرفا منها: لأصول مراتب الأعداد، من الآحاد والعشرات والمئات. وواحد للألوف فلم يحتاجوا –معها- إلى ضم شيء آخر إليها أصلا، فضلا عن تكرارها، كما احتاج أهل الهند، في أرقام حسابهم إلى ضم علامة صفر في عشراتهم، وصفرين في مئاتهم، وثلاثة في أحاد الآلاف وهكذا.

فيحصل المقصود في جميع المراتب، من نفس هذه الحروف، بالأفراد والتركيب والتقديم والتأخير، كما هو مقرر معروف[42]".

وبعد حديث الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية شرع في الحديث عن مرحلة التدوين في التاريخ الإسلامي فهو كما أسلفنا معتز بثقافته الإسلامية وتاريخ الحضارة الإسلامية إذ يقول: "لما انتشر الإسلام، واتسعت مملكته، وحدثت الفتن، شرعوا في تدوين الحديث النبوي، وقوانين الشريعة، واشتغلوا بالنظر والاستدلال، والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الفوائد والفصول. وكان ذلك مصلحة عظيمة. ومع هذا فالسند عند علماء الإسلام، شرط في العمل. بما في الكتب، والاحتجاج بها، والسند، هو أن يعطي المصنف، كتابه إلى آخر، ويقول له: أخنت لك أن تروي عني هذا الكتاب ويعطيه الذي أخذه عن المصنف، إلى آخر بهذا الشرط. وهكذا نسبة كل علم. وإذا عدم هذا السند في كتابه يكون غير معتبر، ولو تكون فيه العلوم الكثيرة..." وأما علوم الأوائل، والفلاسفة فإنها كانت في صدر الإسلام، مهجورة إلى دولة بني العباس. وكان أول من اعتنى منهم بالعلوم، أبو جعفر المنصور. وكان مقدما في علم الفلسفة والنجوم. ثم لما وصلت الخلافة إلى المأمون بن الرشيد، تمم ما بدأ به جده. واستخرج العلم، من معادنه بعلو همته، فراسل ملوك الروم، وسألهم كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه من كتب: أفلاطون، أرسطو، سقراط، جالينوس، أقليدس وبطليموس... وغيرهم. وأحضر لهذه الكتب مهرة المترجمين فترجموا له، على غاية ما أمكن.ثم ألزم الناس قراءتها، ورغّبهم في

[42] الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سبق ذكره، ص 129-131.

تعلمها"[43]. إذن نجد الأمير يسرد قصة تدوين العرب لعلومهم وترجمتهم لكتب أرسطو وأفلاطون فهو بهذا يقول أن الأمة العربية الإسلامية ومن بيتها الجزائر أمة علم وحضارة راسخة في تاريخ البشرية.

والأمير عبد القادر في خاتمة كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل يتحدث عن انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب فيقول:

"اعلموا أن الناس قسمان: قسم اعتنى بالعلوم، فظهرت منهم أنواع المعارف فهم صفوة الله من خلقه، وقسم لم يعتن بالعلوم، عناية يستحق بها اسمه. فالأول، أمم، منهم: الهند، الفرس، اليونان، الروم، الإفرنج، العرب، والعبرانيون وأهل مصر. والثاني بقية الأمم"

وعلى هذا فالأمير اعتبر العرب من الأمم التي اعتنت بالعلوم وهذا على عكس ما كان يروج له الاستعمار الفرنسي بأن الجزائريين شعب لا تاريخ له ولا حضارة لديه، وفي هذا مقاومة ثقافية من الأمير ضد الأساطير التي كان يبثها المستعمر. وفيما يلي كلام الأمير عن العرب: "وأما العرب فهم من ولد سام بن نوح و هم الأمة الرحالة، الخيام، لسكناهم، والخيل، لركوبهم، والأنعام لكسبهم يقومون عليها، ويقتاتون بألبانها، ويتخذون اللباس والأثاث من أوبارها وأشعارها. ويحملون أثقالهم على ظهورها ويبتغون الرزق –في غالب أحوالهم- من الصيد، وقطع الطرق والغارات على من جاورهم من الأمم، ومساكنهم ما بين البحر المحيط، من المغرب، إلى الأقصى اليمن والهند، من المشرق. وما بين ذلك كمصر وصحاري برقة، وإفريقية، والزاب، والمغرب الأقصى، والسوس. فما انتقلوا إلا في المائة الخامسة وكانت لهم دول عظيمة وآثار كريمة. وصل ملكهم إلى طنجة، من المغرب. وإلى سمرقند من المشرق، في الجاهلية وكانوا في الجاهلية، أصنافا: صنف اعترف بالخالق، وأنكر البعث وصنف عبدوا الأصنام، وصنف عبدوا الملائكة وكان منهم من يميل إلى اليهودية، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يميل إلى الصابئة. وكانت بقيت عندهم، بقايا من دين إسماعيل ابن إبراهيم الخليل فكانوا لا ينكحوا الأمهات ولا البنات، والأخوات، ولا يجمعون بين الأختين، وكانوا يحجون

[43] الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سبق ذكره، ص 138-140.

البيت ويغتسلون من الجنابة، ويداومون على المضمضة، والاستنشاق، والسواك والاستنجاء، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، ويقطعون يد السارق، ويعطون دية المقتول، مائة من الإبل، ويطلقون، وتعتد المرأة، التي مات زوجها، لسنة، وكانت علومهم علم الأنساب، والنجوم، وتعبير الرؤيا، ونظم الأشعار، والخطب. وليس يصل إلى أحد من أهل المشرق والمغرب، خبر إلا بالعرب. وذلك أن من سكنوا مكة، أحاطوا بأخبار أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. ومن سكن الحيرة علم أخبار فارس، ومن سكن الشام، عرف أخبار الروم واليونان وبني إسرائيل. ومن سكن البحرين، علم أخبار الهند والسند وكانوا يفتخرون بالبيان في الكلام، والفصاحة في المنطق، والوفاء بالعهد وإكرام الضيوف، وعلو الهمة... يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله، فيكون قدوة. ويفعله فيصير حجة. ويحسّن ما شاء، فيحسن ويقبّح ما شاء، فيقبح رفعتهم عقولهم وأعزتهم هممهم، حتى نالوا أكرم الفخر، وبلغوا أشرف الذكر، فلما شرفهم الله، بالرسول محمد بن عبد الله (صل الله عليه وسلم) وهم على هذه الأخلاق الجميلة، والفضائل الجليلة، تنافسوا في زيادة الفضائل، وتسابقوا إلى نيل العلوم والمعارف فاكتسبوا منها، ما لم يكتسبه الأوائل. وأثروا الآثار العظيمة في أقرب مدة، من بناء المدائن وعمل القناطر وفتح الخلجان. فقد أجرى موسى بن نصير، البحر، اثني عشر ميلا، إلى دار الصناعة بتونس، وصنع مائة مركب، وغزا صقلية وأخذها ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم، في مدة سنة، وجرت فيه السفن، من خلافة عمر بن الخطاب، إلى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز. احتقره من الخليج الذي في ناحية القسطاط. وقال له: خليج أمير المؤمنين، وساقه إلى القلزم. ثم ضيعه الولاة وترك، وغلب عليه الرمل وانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح.

وتيسر لهم من التصنيف، في أنواع العلوم، ما لم يتيسر لأحد قبلهم، حتى إن منهم من بلغت تصانيفه في أنواع العلوم: ثلاثة آلاف مصنف وزيادة. يحكى أن خزانة الكتب بمصر، في دولة صحيحة، بلغت ألفي ألف مصنف، وستمائة ألف مصنف. وفي بعض التصانيف مائة مجلد، إلى ثلاثمائة مجلد، كتفسير الرازي وغيره، وبلغ ملكهم حيث لم يبلغ ملك أمة قبلهم من آدم إلى الآن. ثم بدا فيه

النقص. غير الله بهم، حيث غيروا بأنفسهم، شأن الأمم.... وكل شيء بلغ الحد، انتهى[44].

وعلى هذا فإن الأمير عبد القادر من خلال كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل أظهر للعالم بأن الجزائر لها تاريخ تعتز به، وحضارة إسلامية تنتمي إليها، اعتنت بالعلوم كما بيّنا فيما سبق. كما أن كلام الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية شارحا بعض ما يتعلق بها فيه، اعتزاز بها ورفض قاطع لمحوها من طرف الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الذي عمل منذ دخوله إلى الجزائر على محو مقومات الشخصية الجزائرية من عروبة وإسلام وذلك من خلال هدم المساجد والمدارس وتهجير للعلماء كما رأينا في الفصل الثالث (حول المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر).

[44] الأمير عبد القادر الجزائري ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، مرجع سبق ذكره ، ص 157-161.

قائمة المراجع المعتمدة:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص31-32

2 . بن ساعد عائشة، "البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر" مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2004/2003، ص319-320

3 . الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تحقيق الأمير بديعة الحسني الجزائري، دار الوعي، الجزائر، 2012،

4 . الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966

5 . مهيل اِسمي:" الأمير عبد القادر مؤلفاً، حولية المؤرخ، اِتحاد المؤلفين الجزائريين، العدد 9-10، الجزائر، 2010، ص163-165.